مُقَدِّمَة

هذا الكتاب هو مجموع دراسات عربية ومترجمة، يُعد جزءًا أول من ثلاثة أجزاء لسلسلة تحاول أن تناقش ظاهرة الدولة القومية الحديثة من أبعادٍ ثلاثة: الاجتماعي والسياسي والدولي، وهذا -أولها- يحاول أن يستكشف بؤرة محورية ربما تكون مظلمةً أو مبهمة -لقارئ العربية خصوصًا- في ظاهرة الدولة، ألا وهي: الشرط الاجتماعي لظهور الدولة بشكلها الحديث. إنَّ سؤال السياسة المعاصرة كله ربما كان متمحورًا حول سؤال الدولة: كيفية عملها وكيف بدأت وآليات ممارسة سلطتها، لكن السؤال الأصعب الذي شغل أذهاننا نحن العرب المعاصرين لحقبة ثورات من ناحية، ولحقبة شيخوخة دولة ما بعد الاستعمار من ناحية أخرىٰ، هذا السؤال هو: لماذا يتشبَّث البسطاء بالأشكال القديمة لحكوماتهم متطوعين ويرفضون أي سبيل للتغيير؟ حتىٰ وإن تأكدوا من فساد دولهم وسلطويتها؟ كما تساءل الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز مرَّة: «كيف حصل أنَّ أناسًا ليس لهم أية مصلحة في وجود هذه السلطة يتوسلون مواقعها، ويتبنون أوامرها، ويستجدون كسرة خبز منها؟». كان هذا السؤال سؤالًا دائمَ الحضور خلال تلك السنوات الصعبة

التي أعقبت انتفاضات الربيع العربي، ولم يعُد لثنائيات مثل: حداثة/تقليد، أو دين/علمانية، أو اشتراكية/رأسمالية، وغيرها من الثنائيات التي ورثها الفكر العربي منذ سبعينيات القرن المنصرم، أية قدرة تفسيرية كليَّة لفهم طبائع الصراع أو القهر التي تملأ أركان الدول العربية، وبخاصة لم يكن لها أية قدرة علىٰ تفسير علاقة التطوع التي تسم تصرفات عامة الناس في علاقتهم بمواقف الدولة.

لقد كان الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو مُحقًّا حين قال: «إن السلطة تنبثق من أسفل، السلطة مرض خبيث لا يصيب الرأس، ولكن يبدأ من القَدم»، ففهم آليات الدولة كأداة أو موضوع من موضوعات السياسة يجب أن يبدأ من البعد الاجتماعي الذي أتاح فرصة وجودها في المقام الأول، ووفَّر لها الثبات علىٰ تلك الأشكال النمطية غير القابلة للتعديل. ولذلك يهدف هذا الكتاب إلىٰ تقديم رؤية عن الشرط الاجتماعي لتغول الدول وتضخمها، وشروط هيمنتها الثقافية والاجتماعية والسياسية والقانونية عن طريق التركيز علىٰ مفهوم القومية. وتنبع أهمية القومية من كونها مبتدأً وإطارًا جوهريًّا للعلاقات بين الدول، ومصدرًا نهائيًّا للشرعية السياسية، وإطارًا معرفيًّا وخطابيًّا معطىٰ بشكلٍ قبلي للحياة السياسية والاجتماعية اليومية عند شعوب الدول المعاصرة، وإحدىٰ أهم مسلمات الفعل السياسي، فهي لا تؤطِّر العلاقات الدولية فقط ولا تكتفي بتشكيل إمكانات الفعل السياسي فقط؛ ولكنها تصنع مخيالنا اليومي وطريقة إدراكنا للحياة السياسية والاجتماعية صنعًا.

فتمثل القومية هنا الإطارَ التخيلي الجامع الذي يمثل مشاعر المواطنين اليومية وتطلعاتهم وتوقعاتهم في علاقتهم بالسلطة السياسية وبالآخرين، وهي وإن كانت مؤسسةً من أعلىٰ -أي من السلطة السياسية- إلا أنَّه من أجل مقاربتها مقاربةً أفضل وأكثر واقعية يجب أن نبدأ من الأسفل، أي من قاعدتها الاجتماعية وتحالفاتها ومخيال الطبقات الاجتماعية الواقعة تحت سيطرتها، التي تمكنها من استدامة عملها وبقائها في الآن نفسه.

لقد اخترت تلك الدراسات المُترجمة من بين عشرات الدراسات عن الموضوع، من واقع اهتمام طويل امتد لثلاثة أعوام بالموضوع محل الدراسة، وهدفت من هذا الكتاب أن يكون مرجعًا لطلاب العلوم السياسية والاجتماعية والباحثين والأكاديميين، وأن يُناسب -قدر الإمكان- القارئ غير المُتخصص، وأن يصلح مدخلًا عربيًا لدراسة البعد الاجتماعي لظاهرة الدولة القومية، وأن يمثل حلقة أولىٰ من سلسلة أسعىٰ لإنجازها لتمثل مدخلًا عربيًا مفيدًا ووافيًا للمقاربات الحديثة لموضوع الدولة من زواياه الاجتماعية والسياسية والدولية، وأن يكون إضافة للمكتبة العربية التي تعاني من فقرٍ شديد في هذا الباب، وألَّا يقل في مستواه ودقته وترابطه عن أي كتابٍ مماثل بلغة أخرىٰ. وتركَّز عملي في مراجعة الدراسات المترجمة علىٰ تدقيق اللغة الاصطلاحية المُستخدمة، مع الإبقاء علىٰ اختيارات الأساتذة المُترجمين اللغوية وإن كان فيها بعض الاختلاف عن اختياراتي.

إن الدراسات المجموعة بين دفتي هذا الكتاب يجمع بينها رابطُ وحدة الغرض لا وحدة الأداة، فكلُّها يقارب القومية علىٰ أنها ظاهرة اجتماعية مرتبطة بنشأة الدولة الحديثة، ويناقش تأثيرها وتأثرها بكافة نطاقات الحياة الاجتماعية سواء الثقافية أو الدينية أو غيرها، إلا أنها تتباين في الأدوات والمداخل التي تدرس الظاهرة عن طريقها، وهي في **قسمين؛ أولهما: مقاربات نظرية**، وهو في خمسة فصول، يحاول **أولها** أن يقدم عناصر نظرية سوسيولوجية في علاقة الأنماط الثقافية بنشأة الدول والقوميات ما بعد الاستعمارية، مع تركيز خاص علىٰ «الدين» كأحد العناصر المهمَّة في تشكيل القوميات ما بعد الاستعمارية، وعنوانه: «اختراع دين الأمة»، ويدرس بالتفصيل معنىٰ المفاهيم المركزية للفكرة التي يدور حولها الكتاب «القومية -الدولة- السلطة»، ويعد تمهيدًا نظريًا وافيًا لما يليه من دراسات.

وفي **الفصل الثاني** من القسم الأول، يقدم جان بروي -وهو أستاذ الدراسات القومية والإثنية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وصاحب كتاب مفتاحي في دراسة موضوع القومية وهو «الدولة والقومية» الصادر في (عام **١٩٨٢**م)- دراسةً بعنوان: «مُقاربات في القومية»، من ترجمة الأستاذ حبيب الحاج سالم ومراجعة الدكتور محمد الحاج سالم، وهي دراسة مُعمقة تواصل هدف القسم الثاني في تعميق فهم الظاهرة القومية، ويحاول بروي أن يدرس نقديًا كيف عرَّف المؤرخون القومية وأوَّلوها، ليتوسَّع من

ثمَّ لتناول أسباب تفضيل المقاربات التي تعتبر القومية وجهًا من وجوه الحداثة، ثم يستجلي بشكلٍ أعمق إحدىٰ هذه المقاربات التي تركّز علىٰ العلاقة بين القومية وتطور الدولة الحديثة، ويورد بعض النماذج حول التبصُّرات التي يمكن أن تنتجها مثل هذه المقاربة.

وفي **الفصل الثالث** من القسم الأول، يقدم جوبال بالاكريشنان -وهو بروفيسور من أصل هندي بقسم تاريخ الوعي بجامعة كاليفورنيا، ومحرر كتاب مهم عن موضوع القومية وهو "Mapping The Nation"- بحثًا بعنوان: «المُخيلة القومية»، وهو مقدمة فلسفية شديدة التركيز والجدية عن الجذور الفلسفية لفكرة القومية عند هيجل وماركس وفيبر، لينطلق منها إلىٰ نقدٍ لافت ومعمق لفكرة «الجماعات المُتخيلة» التي طرحها بندكت أندرسن في كتابه الشهير تحت العنوان نفسه، ويحاول بالاكريشنان أن يجيب بلغةٍ فلسفية مرتبطة بتخصصه في تاريخ الوعي، علىٰ سؤال كيفية بناء المخيلة القومية التي اقتصر عمل أندرسن علىٰ وصف سماتها وخصائصها، مع مقدمة نقدية أيضًا للمحاولات الماركسية لمقاربة القومية، ومن بينها محاولة هوبزباوم. وهذا البحث من ترجمة الأستاذ منذر اليوسفي.

وفي **الفصل الرابع** من القسم الأول، يقدم بارثا تشاترجي بحثًا عميقًا وفذًّا بعنوان: «جماعات من المُتخيلة»، وتشاترجي بروفيسور هندي معروف بكتاباته العابرة للتخصص بين التاريخ والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية والآداب، وهو من الجيل الثاني

المُجدد لمدرسة دراسات التابع الهندية من منطلق ما بعد كولولنيالي، بعد جيلها الأول بقيادة أستاذه رانجيت جوها، وقد قدم تشاترجي عدة دراسات مهمَّة في حقل دراسة ظاهرة القومية من بينها: «الفكر القومي والعالم الاستعماري»، الذي قدم فيها طرحًا ما بعد كولونيالي لمقاربة القومية مع تعمق وتشبع بالتراث الماركسي وتأويل لافت لنظريات المنظِّر الماركسي الإيطالي أنطونيو جرامشي، ثم أعقب هذا الكتاب بعد عدة سنوات بدراسة مهمَّة ومفتاحية بعنوان: «الأمة وشظاياها». ويحاول تشاترجي في دراسته «جماعات من المُتخيلة» أن يقدم نقدًا لنظرية بندكت أندرسن حول الجماعات المتخيلة، وأن ينطلق من هذا النقد كمقدمة لنقدٍ أدق موجَّه إلىٰ مقاربات مدرسة دراسات التابع الخاصة بظاهرة القومية ولثنائية المركز والهامش التي تبنتها. وهذا البحث من ترجمتي.

وفي **الفصل الخامس** والأخير من القسم الأول، يقدم الأستاذ معتز الغضباني ترجمةً لنصٍّ مهم للمنظِّر السياسي البريطاني مايكل هيكتر بعنوان: «القومية والعقلانية»، وهيكتر هو أستاذ مؤسس للدراسات العالمية بجامعة أريزونا، وصاحب مساهمة بالغة الأهمية في دراسة القومية في كتابه الصادر في (عام **١٩٧٥**م) بعنوان: «الاستعمار الداخلي: الطرف السلتي في التطور القومي البريطاني»، وهو نموذج تفسيري مهم سيجد القارئ شرحًا وافيًا لمقتضياته في الفصل الأول من القسم الأول. ويُمثل بحث هيكتر «القومية والعقلانية» إحدىٰ ثمرات عمله المتأخر علىٰ التنظير لفكرة

عنف القومية، التي كرَّس لها كتابًا كاملًا بعنوان: «احتواء القومية»، ويحاول هيكتر أن يُبرز الجانب العقلاني في الصراعات المتزايدة علىٰ خلفيات قومية، واستجابة فاعليها لما يُسميه «الحوافز المؤسسية»، ومن خلال ذلك ينتقد الفكرة الشائعة عن عشوائية العنف القومي، ويثبت أنَّ القومية ظاهرة مرتبطة بالحداثة وبنشأة الدول المركزية، مع التركيز علىٰ مبدأ السيادة وهيمنة الوحدة الحاكمة. حيث يرىٰ هيكتر أنَّ القومية هي عمل جمعي مصمم لجعل حدود الأمة متطابقة ومنسجمة مع حدود الوحدة الحاكمة؛ وبالتالي فإن المطالبة بالقومية، أو العمل باسمها لا يظهر بكل ثقله وشدته وعنفه إلا في حين تنافر حدود الأمة والوحدة الحاكمة، وهذا يفسر بدوره حداثة القومية وارتباطها بنشأة الدولة الحديثة؛ إذ لم تعرف الشعوب قبل ظهور الدولة الحديثة فكرة الحكم المركزي والوحدات الحاكمة بشكلها الشائع في هذا العصر.

أما **القسم الثاني** من الكتاب، فيُرجىٰ منه أن يكون مثالًا جيدًا لاستخدام المقولات النظرية التي تضمنها القسم الأول في تحليل حالات تاريخية وإقليمية بعينها، وقد عمدت أن أختار دراساته من نتاج كبار المُنظرين المعنيين بظاهرة القومية ولا أورد مجرد سردٍ تاريخي لأية حالة من الحالات، ففي **الفصل الأول** يقدم الأنثروبولوجي العراقي الدكتور علاء حميد بحثًا بعنوان: «المؤرخون الجدد: نظرة علىٰ الدولة والقومية العربية في العراق»، يقارب فيه موضوعين أساسيين هما: نتائج الدراسات

التي أنتجتها مدرسة «المؤرخين الجدد» في إسرائيل حول الدين والصهيونية والقومية اليهودية، أما الموضوع الثاني فهو مقارنة تلك النتائج بمثيلتها العربية عن موضوع القومية العربية، مع تركيز وتعمق في حالة العراق، ودراسة مستفيضة لعلاقة الدين والثقافة والسياسة بنشأة القومية العراقية عن طريق نقد «السردية الرسمية» التي تبنتها الأنظمة الحاكمة في العراق عن نشأة الدولة العراقية الحديثة.

وفي **الفصل الثاني** من القسم الأول، يقدم الأستاذ كريم عرفة ترجمةً لنصٍ مهم هو محاضرة بعنوان: «القومية الإندونيسية اليوم وغدًا»، ألقاها البروفيسور بندكت أندرسن -الأستاذ الشهير صاحب كتاب «الجماعات المُتخيلة» الذي يُعد ثورة في فهم الظاهرة القومية، وقد كان أستاذًا مُبرزًا بقسم الدراسات الدولية بجامعة كورنيل، ورحل عن عالمنا في العام الماضي-، وفي هذا النص يشرّح أندرسن عناصر أولية بخصوص ظاهرة القومية، ناقدًا أفكار «البدائية» التي تزعم أنَّ القومية ظاهرة مستمرة عبر التاريخ، ومفرقًا بين مفهومي الأمة والدولة، وموضحًا الخطأ الدائم في الترادف بينهما وأسبابه، مستخدمًا الحالة الإندونيسية. وهو نص مليء بالمعلومات التاريخية التي يستخدمها أندرسن بذكاء شديد، بالإضافة إلىٰ أنَّ النص يُعد تلخيصًا لفكرته الجوهرية عن التخيل السياسي والجماعات المُتخيلة والقومية.

وفي **الفصل الثالث** من القسم الثاني، بحث بعنوان: «العلمانية الهندية وتطبيقاتها» لبول براس، من ترجمة الأستاذ

منذر اليوسفي، وبول براس هو أحد أهم منظِّري القومية ومؤرخيها أيضًا، وقد شغل منصب الأستاذ الفخري في كلية السياسة والدراسات الدولية بجامعة واشنطن، وهو غزير الإنتاج ألَّف العديد من الكتب والأبحاث والمقالات وحرَّر موسوعة بعنوان: «الجماعات الإثنية والدولة»، وترتكز نظرية بول براس علىٰ أنَّ القومية هي مجرد «أداة»، وتسمىٰ النظرية الأداتية. ويرىٰ براس أنَّ الإثنية والقومية لا تمثلان حقائق أوليَّة متعالية علىٰ التاريخ كما يدعي القوميون؛ بل هما بنيتان سياسيتان واجتماعيتان من ابتكار النخب الحاكمة المتنافسة لتوليد الدعم الجماهيري ضمن سعيها للوصول إلىٰ الثروة والسلطة والمكانة، معتمدة علىٰ مواد «مشوهة أو مختلقة» من تاريخ الجماعات المحكومة، وأن القومية فوق ذلك كله ظاهرة حديثة مرتبطة بنشوء الدولة المركزية. وفي بحثه «العلمانية الهندية وتطبيقاتها» بنفاذ بصيرة ودقة واستيعاب تاريخي مبهر، يُقدم براس درسًا تاريخيًّا مُشبعًا حول العلمانية الهندية، مؤطرًا إياه بمقولات نقدية دقيقة حول العلمانية والدين والقومية والإثنية بخصوص الحالة الهندية. وأظنُّ أنَّ هذا البحث تمتد أهميته من حقل دراسة القومية إلىٰ سجال العلمانية والدين، ويمثل إضافةً مهمَّة تستحق العناية والقراءة والمناقشة الجادة.

وفي **الفصل الرابع** من القسم الثاني، بحث بعنوان: «هل هناك إسلام تركي؟ مظاهر التوافق والتقارب» لحقان يافوز، من ترجمة الأستاذ كريم عرفة، وحقان يافوز هو بروفيسور العلوم

السياسية في جامعة أوتاه الأمريكية، يحاول يافوز في بحثه هذا أن يبرهن علىٰ أنَّ المبادئ العالمية للإسلام ليست هي وحدها التي تقبع خلف أنشطتنا اليومية وتحركها، وإنما هناك أيضًا تلك المسائل العملية والقضايا العاجلة التي تواجهنا كل يوم، فرغم أنَّ الإسلام يمدنا بمجموعة متكاملة من المبادئ كي يجعل لحياتنا معنًىٰ، فإن تلك المبادئ تتشكل إقليميًّا ومحليًّا وفق مستويات رؤية محددة، ففي الجزء الأول من المقال يفصِّل القول حول مفهوم العالم الإسلامي أو العالم المسلم من خلال تعيين سبعة ميادين متنافسة ومتصارعة من الإسلام السياسي، كل منها قد تميز بأنماطٍ مختلفة من التحولات، وإرثٍ استعماري، وأنواعٍ من القوميات، وأشكالٍ متباينة من العلاقات القائمة بين الدولة والمجتمع فيها، واقتصادٍ سياسي خاص؛ كل هذا سيعمل علىٰ تحليل تلك المناطق المتباعدة والآخذة في التطور. وفي الوقت نفسه وفي ظل أوضاع سياسية محددة، يلحظ المرء ظهورَ إجماعٍ أو رأيًا عامًّا يسري عبر تلك المناطق حول قضايا متنوعة. بعد تحديد ملامح وخصائص ثلاث من هذه المناطق السبع (العربية - الفارسية - التركية) يلقي المقال الضوء علىٰ التصوف، وعلىٰ التركة الحدودية للدولة العثمانية، والاقتصاد القائم علىٰ الضرائب، واتساع مساحات الفرص السياسية؛ لفهم طبيعة البناء المعرفي الإسلامي والممارسات الإسلامية في تركيا.

وفي **النهاية**، أودُّ أن أتوجه بالشكر للأساتذة والزملاء المترجمين الذين عملوا علىٰ إخراج هذا الكتاب بصبرٍ ومودة: الأستاذ كريم عرفة، والأستاذ منذر اليوسفي، والأستاذ معتز الغضباني، وأخص بالشكر الأستاذ الصديق علاء حميد الذي طالما أفادني بنقاشاته وكرمه العلمي، وأودُّ أيضًا أن أعبِّر عن عميق المودة والشكر والتقدير لمركز نماء للأبحاث والدراسات، وللأستاذ أحمد سالم والدكتور ياسر المطرفي علىٰ وجه الخصوص، علىٰ تحمسهما لعملي وتشجيعهما الدائم وتعاملهما الأخوي.

والحمد لله رب العالمين . .